# حديث الإفك

قالت أم أيوب لزوجها أبي أيوب الأنصارى:

أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟

قال:

نعم، وذلك الكذب.

أكنتِ فاعلةً ذلك يا أمَّ أيوب؟

قالت:

لا - والله - ما كنت لأفعله.

قال:

فعائشة - والله - خيرٌ منك.

يقول ابن كثير في تفسيره:

وقد قيل: إن آية ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ نزلت في ذلك.

# مدخل

إنَّ الظلام المتراكم الذي نشرته الجاهلية المنحرفة عن المنهج الحق - قبل الإسلام - قد استطاع أنْ يتسلَّل إلى مكامن نفوس الناس، وزوايا أفئدتهم، حيث تمكَّن من منافذ تفكيرهم، وتغلغل فيها بنسب مختلفة، فهناك من هَيْمَن عليه الظلام، وسرى في عروق قلبه، وشرايين بصره وبصيرته حتى أمسى إنساناً ظلامياً لا يستطيع العيش إلا في أحضان ليل أوهامه الطويل.

وهناك من أوغل في قلبه، ولكنَّه لم يصل إلى كل زواياه ومنافذه، فظلَّ في نفسه مَنْفَذٌ للنور يتسلَّل منه إلى عقله وقلبه، حتى تهيَّأ له - بعد زمنٍ - أنْ يطرد آخر فلول الظلام.

وهناك من ظلَّت منافذ النور في عقله ووجدانه واسعةً فسيحة بالرغم من تراكم الظلام، فرأى ببصره، وأدرك ببصيرته ما لم يستطع أن يدركه أو يراه غيره، من مصادر النور، فكانت استجابته للحق سريعة، وكان تخلُّصه من آثار الظلام ميسوراً.

هكذا كانت أحوال العرب حينما بزغت شمس الإسلام وسرى فجره النقيُّ في عروق هذا الكون الفسيح، منهم من واجهه بعنفٍ وحاربه حتى هلك على ذلك، ومنهم من واجهه حيناً من الدهر، ثم

أدرك معناه وحقيقته فالتحق به، وانتسب إليه، وأصبح من رجاله، ومنهم من فتح قلبه وعقله لنور الإسلام منذ أنْ رأى بزوغ شمسه، وطلوع فجره، فتشبَّع بمبادئه السامية، وترقَّى به في سلَّم الإيمان حتى غدا رمزاً حيَّاً للصدق واليقين.

وهناك فئة أخرى غُلِبَتْ على أمرها، وأصبحت أمام (أمرٍ واقع) لا مفرَّ لها منه، فانتسبتْ إلى الإسلام ظاهراً، وبقي ظلام الجاهلية مسيطراً على منافذ عقول أصحابها، ومسارب مشاعرهم، فكان ذلك الظلام مصدراً للشر في نفوسهم، يتحيَّنون به الفرص للإساءة إلى هذا الدين العظيم، ونبيِّه الكريم عليه الصلاة والسلام، ورجاله المخلصين الأوفياء ونسائه العفيفات الطاهرات - رضي الله عنهم أجمعين -.

لقد كان حديث الإفك مجالاً من مجالات هذا الصِّنف المتشبِّع بظلام الجاهلية، وهو الصنف الذي أسماه القرآن الكريم «المنافقين»، الذين يعيشون حالة التذبذب والتأرجح بين هؤلاء وهؤلاء، الذين صوَّرهم الرسول ﷺ أدقَّ تصوير حينما شبَّههم بالشاة العائرةِ بين الغنمين تميل إلى هذا القطيع تارةً، وتميل إلى الآخر تارةً أخرى، فهي لا تعرف أين تتَّجه، ولا تستطيع أن تحدِّد مكان القطيع الذي تنتمي إليه؛ ولذلك تبقى في حالةٍ من الذهول والاضطراب، والتنقُّل السريع الوَجِل، مع طأطأة الرأس، والالتفات الذي ينمُّ عن حالةٍ عجيبة من الرُّعب وعدم الاستقرار.

إنها صورة دقيقة للمنافق المضطرب الذي لا يثبت على موقفٍ أبداً، ولذلك فهو لا يستقرُّ إلا إذا ثار الغبار، ولا يهدأ إلا إذا عصفت عواصف الظنون والشبهات.

إنَّ الاضطراب هو الذي يوافق طبعه الخبيث ونفسه المتأرجحة، فهو يتربَّص بالمؤمنين الدوائر، حتى إذا وجد مدخلاً إلى إثارة فتنة أسرع إليها، وأشعلها بالأكاذيب والشائعات؛ لأنه لا يستطيع أن يعيش إلا في الأجواء الغائمة التي تنعدم فيها الرؤية.

بهذه النفسيّة المضطربة تعامل المنافقون (المذبذبون) مع قضية الإفك، حيث أشعلوا نارها، وأثاروا غبارها، وكشفوا عن خفايا نفوسهم اللئيمة، وقلوبهم الحاقدة.

لقد تفنَّنوا في عرض هذه القضية عرضاً شيطانياً خبيثاً، أثار الشبهة في أذهان بعض المسلمين، الذين برئتْ نفوسهم من النفاق، ولكنها ضَعُفَتْ - في وقت الشدة - عن معرفة الحق، وخامرها الشك حتى كاد يقتلها.

غبارٌ كثيف..

وشائعات تسري بين الناس كاللَّهب..

وروايات تُحاك..

وليالٍ سوداء مظلمة يعيشها الرسول ﷺ وأصحابه في هذا الجوّ الخانق.

أما صاحبة القضيَّة، الطاهرة النقيَّة، فهي غافلةٌ عما يجري، غائبةٌ عنه، لم يتجرَّأ أحد ممن حولها على رواية القصة الدَّامية لها، وما كانت ترتاب في شيء ولم يكن يخطر ببالها أن يكون ما جرى قد جرى، وأنَّى لها ذلك وهي تعلم من نفسها العفَّة والطهارة؟

شيء واحدة كان يزعجها، ألا وهو ما ترى من فتور عناية حبيبها عليه الصلاة والسلام بها.

لم تكن تدري - حينها - بذلك الألم الدَّفين الذي أشعله المنافقون في نفسه الكريمة ﷺ.

ما أشدَّها من محنة!

ألْسِنة حِدادٌ تنحَت في عرض أحبِّ نساء النبي ﷺ إليه.

وهي لا تعلم بشيء مما يجري...

وهو في حالةٍ شديدةٍ لم يستطع - بَعْدُ - أن يصل فيها إلى قرار.

بأبي وأمي ذلك النبي الصابر المحتسب عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم..

ما كان أشدَّها من فِرْيَةٍ ظالمة، أشعلت لهب الأسى في القلوب النقيَّة الطاهرة.

لقد روت لنا كتب السيرة صوراً من تلك المعاناة العظيمة في مواجهة هذا الحديث الآثم.

أما عائشة - رضي الله عنها - فقد نقلت إلينا ذلك الحدث الأليم بأسلوبٍ أدبي فريد.

إن لغتنا العربية الفصحى لتتألَّق على لسان أمنا (عائشة - صاحبة الحرير الأخضر - حتى رأيناها مشاعل مضيئة من البلاغة والبيان، كان زيتها مستمداً من «دموع أم المؤمنين» التي لم ترقأ، حتى خمد صوت النفاق الأجَشّ الذي انطلق بحشرجته البغيضة مضخِّماً تلك الفرية الكاذبة.

إذنْ...

فقد وجد المنافقون مجالَهم، وفتح لهم الشيطانُ أَبواب الهوى والشك والظنون، وظنوا أنهم قد بلغوا ما أرادوا، وأنهم قد وجدوا السلاح الذي يحطمون به همم الرسول ﷺ وأصحابه.

لقد زيَّن لهم الشيطان أعمالهم، وأضلَّهم عن السبيل، وما علموا - وهم يهرولون في منحدر الفتنة - أنَّ الليل الذي يستر وجوههم الكالحة سينجلي، وأنَّ الشمس ستكشفهم لتراهم أعينُ

الناس في العَراء من غير حُجُبٍ ولا أَقنعةٍ تخفي ملامح وجوههم البشعة.

في هذه الأجواء الغائمة ولدت (المعاناة) في قلب أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -.

لقد ضاعف من ألمها أنها لم تعلم عن (فرْيَةِ المنافقين) إلا بعد أنْ قطعوا بها شوطاً بعيداً في دروب الإثارة، والتَّشكيك، وبعد أنْ ذهبوا بها في سراديب الأكاذيب كلَّ مذهب.

لقد كان علمها بالأمر مفاجئاً، مما كان سبباً في تضخيم أثر الصدمة النفسية في قلبها، مع ما كانت تعاني من مرضٍ ألزمها الفراش زمناً غير قصير.

وتضافرت عليها قسوة المفاجأة، ووطأة المرض، مع فتور عناية الرسول ﷺ بها، مع ما تراه - بعد علمها بالخبر - من نظرات الإشفاق والحزن الشديد من أهلها وذويها.

تضافرت عليها هذه العوامل فملأتْ جنبات نفسها ألماً قاسياً كاد يُودي بحياتها لولا الصبر والاحتساب، ثم انفراج الموقف بتزكيةٍ إلهيةٍ من فوق سبع سماوات.

لقد وفَّر هذا الحدث المؤلم - بكل جوانبه وزواياه - جوًّا نفسياً فريداً للإبداع الأدبي...

ولذلك فما إنْ بدأت أمنا الطاهرة صاحبة الحرير الأخضر بسرد قصتها، حتى توافدت عليها العبارات والجمل، وتسابقت إليها الكلمات والصور، متدفِّقة المعاني، مشرقة الأسلوب، بليغة الصورة، عميقة الأثر.

هنا جوٌّ نفسي للإبداع لا نظير له.

وهج معاناة، وغليانُ أسى، وحرقةُ ألم، ممزوجةٌ بفرحٍ غامر وسرور عميق بما منَّ الله به عليها من البراءة والتزكية من فوق سبع سماوات.

إنَّه النصُّ العائشي المتميِّز. الذي:

يحمل من القصيدة وهجها وتدفُّقَها..

ومن القصّة إثارتها وتسلسلَ أحداثها، وتألُّقَ أشخاصها..

ومن الخطبة بلاغتها وقوة عباراتها..

ومن السيرة الذاتية سلامة عرضها، وصدق تجربتها.

إن حديث الإفك نصٌ أدبي متميِّز يجمع لنا خصائص أسلوب عائشة رضي الله عنها الفنية..

لهذا كان جديراً بوقفة خاصة لإبراز ما فيه من إبداع أدبي كبير.

هيا بنا إلى ذلك الحديث:

# نص حديث الإفك

**المصدر:**

١- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، حديث ٤١٤١.

٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تفسير آية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ من سورة النور.

**توثيق:**

قال ابن كثير: وبيان ذلك - أي حديث الإفك - وارد في الأحاديث الصحيحة، وقال الإمام أحمد: حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن الزهري، قال:

أخبرني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقَّاص وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حيث قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرَّأها الله تعالى، وكلُّهم قد حدَّثني بطائفةٍ من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض، وأَثْبَتَ له اقتصاصاً، وقد وعيتُ عن كلِّ رجلٍ منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة - رضي الله عنها، وبعض حديثهم يصدِّق بعضاً.

ذكروا أنَّ عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله عليه

الصلاة والسلام إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه.

قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها فخرج فيها سهمي، وخرجت معه، وذلك بعدما أُنْزِل الحجاب، فأنا أُحمَل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ الرسول ﷺ من غزوته تلك، وقَفَل، ودنونا من المدينة قافلين، آذَنَ ليلةً بالرحيل، فقمت حين آذَنَ بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلتُ إلى رَحْلي، فلمست صدري، فإذا عِقْدٌ لي من جزْعِ ظَفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عِقدي، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرَّهْطُ الذين كانوا يُرَحِلُونني، فاحتملوا هودجي فَرَحَلُوه على بعيري الذي كنت أركب - وهم يحسبون أني فيه - قالت: وكان النساء - إذْ ذاك - - خِفافاً، لم يثقُلْنَ، ولم يَغشَهُنَّ اللحم، إنَّما يأكُلْنَ العُلْقَةَ من الطعام، فلم يستنكر القوم خفَّة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جاريةً حديثة السِّنّ.

فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عِقدي بعدما استمرَّ الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ أو مجيب، فتيمَّمتُ منزلي الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفتقدونني فيرجعون إليَّ، فبينما أنا جالسة في منزلي، غَلَبَتْني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطّل السلمي ثم الذّكوانيّ قد عَرَّس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي،

فرأى سواد إنسانٍ نائم، فأتاني فعرفني حين رآني - وكان قد رآني قبل الحجاب - فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي - والله ما كلَّمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة - غيرَ استرجاعه حين أناخ راحلته، فوطئَ على يدها فركبتُها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا مُوغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولّى كِبْرَه عبدالله ابن أبيّ بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمناها شهراً، والناس يُفيضون في قول أصحاب الإفك...

ولا أشعر بشيء من ذلك.

وهو يُريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللُّطْفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي.

إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلِّم ثم يقول: «كيف تيكم»، فذلك الذي يُريبني، ولا أشعر بالشرّ. حتى إذا خرجتُ بعدما نَقِهْتُ، وخرجت معي أمُّ مِسْطح قِبَلَ المناصع - وهو متبرَّزُنا، وكنَّا لا نخرج إلاَّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تُتَّخذَ الكُنُفُ قريباً من بيوتنا، فانطلقت أنا وأمّ مسطح وهي بنت أبي رُهْم بن المطّلب بن عبدالمطلب بن عبدمناف، وأمُّها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر ابن الصديق، وابنُها مِسْطح بن أُثاثة بن عبّاد بن عبدالمطلب.

فأقبلت أنا وابنة أبي رُهم - أم مسطح - قِبَلَ بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرتْ أمُّ مِسطح في مِرْطها، فقالت: تَعِسَ مسطح، فقلت لها: بِئْسَ ما قُلْتِ، أتسبِّين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: أيْ هَنَتاه، أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟، قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعتُ إلى بيتي دَخَلَ عليَّ رسول الله ﷺ، فسلَّم ثم قال: «كيف تيكم»؟ فقلت له: أتأذن لي أنْ آتي أبويَّ؟

قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما فأَذِنَ لي رسول الله ﷺ، فجئْتُ أَبويَّ، فقلت لأمي: يا أمَّتاه، ماذا يتحدَّث الناس به؟ فقالت: أيْ بُنيَّة، هوِّني عليك، فوالله لَقلَّما كانت امرأة قَطُّ وَضيئة عند رجل يحبُّها، ولها ضرائر إلاَّ أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله! أوقد تحدَّث الناسُ بهذا؟.

قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنومٍ، ثم أصبحت أبكي.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد - حين استَلْبَثَ الوحي - يسألهما، ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على الرسول ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الودّ.

فقال أسامة: يا رسول الله، أهلُك، ولا نعلم إلا خيراً. وأما عليّ ابن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيِّق الله عليك، النساء غيرها كثير، وإنْ تسأل الجارية تصدقك الخبر.

قالت: فدعا الرسول ﷺ بَريرة، فقال: أيْ بَريرة، هل رأيت من شيء يُريبك من عائشة؟، فقالت له بَريرة: والذي بعثك بالحق، إنْ رأيت عليها أمراً قَطُّ أغمِصُه عليها أكثرَ من أنها جارية حديثة السِّنّ تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

فقام الرسول ﷺ من يومه، فاستعذر من عبدالله بن أُبيّ بن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: يا معشر المسلمين، من يُعذِرُني من رجل قد بلغني أَذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلاَّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلاَّ معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إنْ كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتَنا ففعلنا بأمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيِّد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكنْ احتملتْه الحميّة، فقال لسعد بن معاذ: كذبْتَ - لعمر الله - لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رَهْطِك ما أحببْتَ أن يُقتل، فقام أُسيد بن حُضير، وهو ابن

عمٍّ سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبتَ - لعمر الله - لنقتلنَّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فتثاوَر الحيَّان؛ الأوس والخزرج حتى همُّوا أنْ يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر.

فلم يزل رسول الله عليه الصلاة والسلام يخفِّضهم حتى سكتوا، وسكت رسول الله ﷺ.

قالت: وبكيت يومي ذلك لا يَرْقَأُ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنَّان أن البكاء فالقٌ كبدي.

قات: فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، إذ استأذنتْ عليَّ امرأة من الأنصار، فأَذِنْتُ لها فجلستْ تبكي معي، فبينَا نحن على ذلك إذْ دخل علينا رسول الله ﷺ، فسلَّم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، ولقد لَبِثْتُ شهراً لا يُوحى إليه في شأني شيء.

قالت: فتشهَّد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئةً فسيبرِّئُك الله، وإنْ كنتِ أَلْمَمْتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه.

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالتَه، قَلَصَ دمعي حتى ما أحسّ منه قطرة.

فقلت لأبي: أجب رسول الله فيما قال.

فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت لأمي: أجيبي رسول الله.

فقالت: والله، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت: فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن-:

إني والله لقد علمت، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم، وصدَّقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لَتصدِّقُنِّي، فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

قالت: ثم تحوَّلتُ فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا - والله - أعلم حينئذٍ أني بريئة، وأنَّ الله تعالى مبرِّئي ببراءتي، ولكنْ - والله - ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيٌ يُتْلَى، ولَشأني في نفسي كان أحقرَ من أن يتكلَّم الله فيَّ بأمرٍ يُتلى، ولكن كنت أرجو أنْ يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرِّئني الله بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيِّه، فأخذه ما كان يأخذه من

البُرَحاء عند الوحي حتى إنَّه ليتحدَّر منه مثل الجُمان من العَرَق وهو في يومٍ شاتٍ من ثِقَل القول الذي أُنزل عليه.

قالت: فسُريَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أوَّل كلمة تكلَّم بها أنْ قال: أبشري يا عائشة، أمَّا الله - عز وجل - فقد برَّأك.

قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذي أنزل براءتي.

وأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العشر الآيات كلها.

فلما أنزل الله سبحانه وتعالى هذا في براءتي، قال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مِسْطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: - والله - لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ... إلى قوله: أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال أبو بكر: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها عنه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج رسول الله عن أمري، فقال: يا زينب ماذا علمتِ أو رأيت؟

فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبيّ ﷺ، فعصمها الله تعالى بالورع، وطفقت أختها «حمنة بنت حجش» تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك.

# وقفة مع مقاطع من رواياتٍ أخرى

١- مقطع خروج عائشة مع أم مسطح.

ورد في رواية أخرى عن الإمام أحمد بالعبارة التالية: [فلما كان مساء ذلك اليوم خرجتُ لبعض حاجتي، ومعي أم مسطح، فعثَرَتْ فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: أيْ أُمِّ، تسبِّين ابنك؟، فسكتتْ.

ثم عثرت الثانية فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: أيْ أم، تسبِّين ابنك؟، ثم عثرت الثالثة فقالت: تعس مِسْطح، فانتهرْتُها، فقالت: والله ما أسبُّه إلاّ فيك.

فقلت: في أيِّ شأنٍ؟

قالت عائشة: فبقرَتْ لي الحديث.

فقلتُ: وقد كان هذا؟ قالت: نعم والله.

فرجعت إلى بيتي، كأنّ الذي خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً].

٢- مقطع سؤال الرسول ﷺ جارية عائشة عنها ورد في رواية البخاري بالعبارة التالية:

[قالت عائشة: ولقد جاء الرسول ﷺ بيتي فسأل عني خادمي، فقالت: يا رسول الله، لا والله ما علمت عليها عيباً، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها.

وانتهرها بعض أصحابه، فقال: اصدقي رسول الله ﷺ فقالت: سبحان الله، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر].

٣- مقطع إجابة عائشة رسول الله ﷺ على كلامه بحضور أبويها.

ورد في البخاري بالعبارة التالية:

[قالت عائشة: فلما لم يجيباه - تقصد أبويها -، تشهَّدْتُ، فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت: أما بعد، فوالله إنْ قلت لكم: إني لم أفعل - والله عز وجل يشهد إني لصادقة - ما ذاك بنافعي عندكم، لقد تكلَّمتم به، وأُشْرِبَتْه قلوبُكم. وإنْ قلت لكم: إني قد فعلت - والله يعلم أني لم أفعل - لتقولُنَّ قد باءت به على نفسها، وإني - والله - ما أجد لي ولكم مثلاً - والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته، فسكتنا فرُفع عنه، وإني لأتبيَّن السرورَ في وجهه وهو يمسح جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك.

قالت: وكنت أشدَّ ما كنت غضباً، فقال لي أبوايَ: قومي إليه.

فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما، ولكنْ أحمد الله الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه، فما أنكرتموه ولا غيَّرتموه].

## وقفة مع حديث الإفك

حديث الإفك برواية صاحبة الحرير الأخضر نصٌّ أدبي جليل القدر، رفيع المكانة في مراتب البلاغة والبيان، فهو: جميل العبارة، مشرق البيان، بديع التصوير، متماسك الأجزاء، متكامل الجوانب حديث أدبي يعجب، ويُمْتِع، ويُرضي كلَّ متذوِّق للأدب الرَّاقي.

إنه «قصَّة متكاملة» تتوافر فيها جميع عناصر القصة من أحداث مثيرة، وشخصيات متعدّدة، وحوار، وحبكة قصصية، وعقدةٍ ظلَّتْ تشدّ الانتباه شدّاً قوياً حتى كان الحلُّ بَلْسماً شافياً للصدر.

ولعل من المفيد هنا - تحاشياً للإطالة - أن أحدِّد معالم الإبداع والجمال في قصّة الإفك، من خلال النقاط التالية:

١- الصدق في الرواية، والوضوح في طرح جوانب القضية، دون تغيير أو تبديل، أو محاولة لتحويل النّص إلى امتياز شخصي خاص.

إنَّ الصدق يواجهنا منذ قراءتنا لأول كلمة في حديث الإفك، إلى آخر كلمةٍ فيه، وكيف لا يكون حديثاً صادقاً، وقد سمعه الصحابة وتأثَّروا به، ووافقوا صاحبته على كلِّ ما أوردت فيه؟

٢- دقَّة الوصف، وتسلسل الأحداث، وجمال السرد. ومن الأمثلة على ذلك المقطع الأوَّل من القصة حيث قالت عائشة:

«فسرنا حتى إذا فرغ الرسول ﷺ من غزوته تلك، وقَفَل، ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلةً بالرَّحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني، أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه».

أرأيتم هذا التسلسل الجميل، وهذا الوصف الدقيق، وهذا الانسياب الذي يسرقنا من أنفسنا ونحن نتابعه دون عناء؟ إنها ترسم لنا صورة دقيقة لبداية القصة، لا نملك معها إلا أن نتعلَّق بمعرفة ما جرى بعد ذلك.

٣- تحقيق عنصر الإثارة وشدَّة الانتباه. ولقد امتلأ هذا النص الأدبي بعناصر إثارةٍ كثيرة، تشدّ الانتباه وتثير الاهتمام.

فهي تصوِّر فقدها لِعقدها ورجوعها للبحث عنه، وطول إقامتها باحثة عنه، ثم تصوِّر ما جرى بعدها من حمل هودجها خالياً منها على البعير، وانطلاق الجيش، ثم تصوِّر لنا شعورها حينما عادت إلى الموقع تصويراً مثيراً مؤثِّراً تقول: فوجدت عقدي بعدما استمرَّ الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب...

وهنا يتحقَّق عنصر الإثارة الأوَّل الذي نقل القصة إلى عقدتها الكبرى.

٤- الربط القوي بين أجزاء الحدث وعناصره ومواقفه ربطاً لا يتيح لقارئ أو سامع أن ينشغل عنه، أو يفتقد شيئاً من عناصره.

لقد أصبح حديث الإفك كُتلةً واحدةً لا تنفصم عُراها، ولا تتفرق أجزاؤها.

٥- مراعاة التسلسل الزماني والمكاني حتى أصبح المستمع أو القارئ معايشاً للحدث، وكأنه واحدٌ ممن رأوه، وحضروا أحداثه.

٦- الدِّقة في اختيار العبارات والجمل الاحترازية التي توضِّح، وترسِّخ المعلومة، وتزيل ما قد يحدث من غَبَش الفهم الخاطئ.

فهي تتحدث عن حملهم لهودجها ظانين أنها فيه، ثم تدرك بحسّها البياني المرهف أن سؤالاً قد ينشأ في نفس المستمع: كيف يحدث ذلك، أليسوا قادرين على التفريق بين خفَّة الهودج وثقله؟!

ولذلك تضع الاحتراز من عندها، وتضيف لنا معلومةً عن حالة النساء في ذلك الزمن فتقول:

«وكان النساء إذْ ذاك خفافاً لم يثقُلْنَ ولم يغشَهُنَّ اللحم، إنما يأكُلْن العُلْقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه».

هنا يظهر أثر الحسّ البياني المرهف، فقد أراحت عائشة كلَّ من قد ينشأ عندهم ذلك السؤال.

ومثل ذلك قولها أكثر من مرَّة «وكنت جارية حديثة السنِّ» لتنبِّه المستمع أو القارئ إلى هذه الناحية كلَّما شطح به خياله بعيداً في تصوُّر ما جرى، وهو المعنى الذي نقلته عائشة عن جاريتها بريرة حين قالت: «تنام عن عجين أهلها فتأتي الدَّاجن فتأكله».

ومن الجمل الاحترازية المضيئة قولها عن سعد بن عبادة الذي غضب وقال كلاماً قاسياً لسعد بن معاذ:

«وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحميَّة»

إن عائشة تسرد قصة حدث كبير له مساس بالعقيدة، وسعد ابن عبادة، كان يدافع - في سَورة غضبه - عن المنافق عبدالله بن أبيّ بن سلول، فكان لابد لعائشة الأديبة البليغة أن تضع هذا الاحتراز المضيء حتى لا يظنّ ظانٌّ أنَّ سعداً كان ينافح عن المنافقين، وإنما كان يتكلَّم حميَّة عن قومه الخزرج.

وكذلك قولها حينما ذكرت مجيء صفوان بن المعطل بعد الجيش وما حدث له من المفاجأة حين رآها فعرفها: «وكان قد رآني قبل الحجاب» وهو احتراز جميل مهم في هذا الموضوع.

ألم أقل لكم: إننا أمام قامة سامقة في البلاغة والبيان؟

٧- نصاعة العبارة، وجمال الصور البلاغية. وصَاحبة الحرير الأخضر مدرسةٌ متكاملة في هذا الجانب، وإليكم البيان تأملوا معي العبارات المختارة:

«آذن بالرحيل، دنونا قافلين، فالتمست عقدي، وأقبل الرَّهط، كانو يُرَحِلُونني، يأكلن العُلْقة من الطعام - العُلْقة هي الطعام القليل الذي فيه بلاغ ولا يُشْبِع -، استمرَّ الجيش، فيمَّمتُ منزلي، فأدْلج، سواد إنسان، فخمَّرت وجهي، موغرين في نحر الظهيرة - أَوْغر: تعمَّق -، والناس يُفيضون، يُريبني في وجعي، بعدما نَقِهْتُ، وهو متبرِّزُنا، لا يَرْقَأ لي دمع، استلبث الوحي، فلم يزل الرسول ﷺ يخفِّضهم،، فالقُ كبدي، قَلَص دمعي - قلص: جمد وتوقَّف -، ما رَامَ رسول الله منزله، وكانت تساميني - تنافسني -، فبقَرتْ لي الحديث - أي حدثتني به دفعة واحدة، بقر الشيء بمعنى شقَّه كاملاً وأخرج ما فيه -.

هذه العبارات وغيرها لا يمكن أن ينتقيها في حديثه بهذه الدِّقة إلا من كان له مثل مقدرة عائشة رضي الله عنها اللغوية.

أما الصور البلاغية فهي طَوْعُ بنانها، كأنما هي مُخبَّأةٌ تحت لسانها.

تأملوا معي الصور التالية:

- فالتمست عِقدي فحبسَني ابتغاؤه «استعارة».
- لم يغشَهُنَّ اللحم «كناية عن النُّحول».
- وليس بها داعٍ ولا مجيب «كناية عن فراغ المكان».

- غلبتني عيناي فنمت.

أقول: للّه هاتان العينان اللتان تغلبان صاحبَهما.

- بعدما نزلوا مُوغرين في نحر الظهيرة

تخيَّلوا معي الظهيرة التي لها نَحْرٌ أوغروا فيه، أي دخلوا في أعماقه.

- لا أكتحل بنوم.
- حتى إنه ليتحدَّر منه مثل الجُمَان من العرق.
- فرجعت كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً «كناية عن جفاف عروقها لهول المفاجأة».
- لقد تكلَّمتم به وأُشرِبتْه قلوبكم.

٨- الموازنة الناجحة بين الموضوعية في بيان الحقِّ، وسرد الأحداث، وتصوير الأشخاص، دون تمكين العاطفة من التأثير السلبي في ذلك.

وبين الوهج العاطفي القويّ الذي أحدثه الألم من آثار حديث الإفك.

لقد استطاعت عائشة أن تحافظ على أصل القصة مع مدِّها الخيطَ الوجدانيَّ الشجيَّ في عبارات الحديث وجمله كلها، حتى أصبح التعاطف مع عائشة سمةَ كلٍّ من يقرأ قصتها دون إخلالٍ بميزان العدل والإنصاف.

إنَّ براعة صاحبة الحرير الأخضر البيانية، وثروتها اللغوية الغنية هي التي جعلت حديثها حافلاً بالأحكام الشرعية، وأخبار الأماكن والأشخاص والمواقف، حتى إنَّه ليغني قارئه عن كلِّ ما عداه فيما يتعلَّق بتلك القضية التي هزَّت جنبات المدينة كلها.

مع كونه حديثاً عاطفياً مؤثراً تأثيراً كبيراً في قلوب الذين يتأملونه، ويستوعبون ما فيه من المعلومات والدِّلالات.

إنَّ قولها: أصبحت أبكي، حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وكنت حديثة السنّ، وغيرها من العبارات والجمل لتملأ قلوبنا رحمةً وإشفاقاً، مع أنها لم تؤثِّر في أي حدث أو موقف أو شخص تأثيراً سلبياً.

٩- كثرة المعلومات داخل حديث الإفك، وتنوُّعها وصحَّتها. فهو يشتمل على حديثٍ عن غزوة من الغزوات، وهي غزوة المريسيع (غزوة بني المصطلق) التي وقعت سنة ستٍ من الهجرة، وقيل سنة أربعٍ من الهجرة.

ويشتمل على معلومات عن طريقة سيرهم في الغزو، وعن إقراع الرسول ﷺ بين نسائه حينما يخرج لغزو أو لغيره، وعن حمل النساء في الهوادج، وعن وجود أشخاص يسيرون خلف الجيش للمتابعة، وتكون فائدة متابعتهم كبيرة كما حصل في موضوع

عائشة، فلولا وجود صفوان بن المعطِّل للقيام بهذا الغرض لما علم عنها أحد إلا بعد فترة قد تكون طويلة.

والحديث يشتمل أيضاً على وصف خطورة دور المنافقين في الأمة، وعلى خطورة إثارة النَّعرات القبلية كما حدث في الخلاف بين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، ثم بين الأوس والخزرج حتى كادوا يتقاتلون في المسجد، والحديث يشتمل على وصف لجوانب من الحياة الاجتماعية والأسرية في عهد الرسول ﷺ، وعلى تصويرٍ لحكمة الرسول عليه الصلاة والسلام وصبره واحتسابه.

وفيه وصفٌ لحالة نزول الوحي على رسول الله، وماذا يصيبه حينما يُوحى إليه.

معلومات كثيرة غزيرة، يستطيع من يتأمَّلها ويبحث عن تفاصيلها في كتب السيرة أن يحصل على علم غزير.

١٠- بيان الآثار السلبية الكبيرة والآثار الإيجابية لقصة الإفك. فهي قصة مهمة كشفت خطورة سوء الظن، والغيبة والنميمة، ونبَّهت إلى وجوب الحذر من دور المنافقين المشبوه، القائم على إثارة الفتنة، والكذب، والترويج للأباطيل، كما كشفت القصة عن وجود أصحاب القلوب المريضة في كل زمان ومكان، وفي كل مجتمع مهما كان صحيحاً سليماً.

ومقابل ذلك كشفت قصة الإفك عن سلامة صدور أصحاب رسول الله، وحسن ظنهم بنبيِّهم وأهل بيته، وأوضحت أهمية الصبر، والحكمة والاستعانة بالله سبحانه وتعالى، وانتظار الفرج منه.

وقد أشارت عائشة إلى ذلك بوضوح حينما ذكرت أنها لم تكن تطمح إلى أن ينزل فيها قرآن يُتلى، وإنما كانت تتوقَّع أن يرى الرسول ﷺ رؤيا في منامه تُثبت براءتها.

١١- الدِّقة في رسم الأشخاص وتحديد مواقفهم، والتعريف بهم، وهذا دليل على علم عائشة وسعة اطّلاعها، وهذا - في حقيقة الأمر - من أعاجيبها رضي الله عنها، فقد كان عمرها لا يتجاوز الرابعة عشرة حين جرى حديث الإفك بين الناس، وهذا ما يجب أن يتنبَّه إليه كل من يقرأ عن عائشة وعلمها وروايتها وأدبها، ومواقفها مع رسول الله ﷺ، فلا بد أن نتذكَّر دائماً أن رسول الله ﷺ قد مات وعمرها ثمانية عشر عاماً، ومعنى ذلك أنَّ كلَّ ما شاركت به من علم وأدب ورواية، وكلَّ ما كان منها من تعاملٍ كبيرٍ مع سيِّد ولد آدم عليه الصلاة والسلام حتى أصبحت منه بالمكانة التي نعلم، إنما كان وهي في سنِّ الصِّبا والشباب المبكِّر الذي يُعَدُّ في زماننا هذا (سنَّ مراهقة). نعم، لقد رسمت لنا صاحبة الحرير الأخضر شخوص قصتها رسماً دقيقاً وفق ما تقتضيه حاجة القصة، فقد عرفنا من هو

صفوان بن المعطل الذي جرى حوله حديث الإفك، وعرفنا من هو أسامة بن زيد، وسعد بن عبادة، ومن هي أم مسطح، ومن هو ابنها مسطح بن أثاثة، وعرفنا من هو أسيد بن حضير، ومن هو عبدالله بن أُبيّ بن سلول، وما علاقة أبي بكر الصديق بمسطح، ومن هي زينب بنت جحش، وماذا كان دور أختها حمنة، وماذا كان دور جارية عائشة (بَريرة).

شخوص عرفناهم معرفةً تُؤهِّلنا للتفاعل معهم، وكأننا نرى ونسمع.

وأخيراً...

فإنَّ حديث الإفك ينمُّ عن قدرة بيانية عجيبة، ويعبِّر عن فهم ووعي وإدراك، وفقهٍ بما جرى، وعلمٍ غزير، وإلمامٍ كبير بأطراف الموضوع كلِّها، ولذلك صار هذا الحديث أنموذجاً بلاغياً فريداً، فيه من اللَّمسات الفنّية، والإشارات الدقيقة، والتلوين الأسلوبي البديع ما يرقى به إلى مصافِّ النصوص الأدبية الفريدة.

إنه محكم النسج، متكامل الصياغة، سَلِسُ الأسلوب، ففيه الاستفهام المثير، والتعجُّب المناسب، والاندهاش والإدهاش، وفيه التموُّج العاطفي الجميل، وفيه الجمل الاعتراضية المهمة جداً للاحتراز، وإزالة شبهة الفهم الخاطئ.

وفيه أساليب الاستعارة والتشبيه والكناية، وعبارات الإيحاء التي تدلُّ على دراية كبيرة بالطرق المُثْلَى لاستخدام الكلمة أو الجملة.

وفيه الأدب الرَّاقي مع الذين تحدَّثوا، أو أشاروا بما قد يُفهم منه ميلهم إلى التصديق بذلك الحديث، فهي تؤكد لنا أن حمنة بنت جحش - رضي الله عنها - وقعت في هذا الحديث، ولكنها لم تقل في شأنها كلمة نابية أبداً، وإنما قالت - بعد مدحها لزينب بنت جحش التي منعها ورعها من الحديث -: وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هَلَك.

وكأني بعائشة رضي الله عنها تقدِّم لنا عذراً بطريقة خفيَّة يجعلنا نقلِّل من تَثْريبنا على حمنة، فهي لم تقل ما قالت لفسادٍ في دينها، وإنما كان بسبب عاطفتها التي أعمتها عن الحق فأصبحت «تحارب لأختها زينب» بحديث الإفك، خاصةً وأن عائشة ذكرت قبل ذلك أن زينب هي التي كانت تنافسها في المكانة عند رسول الله ﷺ.

وقد ورد في الحديث ما يؤكد هذا، فهذا ابن جرير الطبري يروي في تفسيره أن عائشة وزينب رضي الله عنهما تفاخرتا، فقالت زينب: أنا التي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة: أنا التي نزل عذري في كتاب الله حين حملني صفوان بن المعطَّل على الراحلة.

فقالت زينب: يا عائشة، ما قلتِ حين ركبتها؟

قالت عائشة: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل.

قال زينب: لقد قلتِ كلمة المؤمنين.

يا لروعةِ هذا الحوار، ويالعظمة هذه النفوس! إنها النفوس التي تتلمذت على معلِّم البشرية محمد بن عبدالله ﷺ.

أرأيتم - أيها الأحبة - جمالَ ورقَّةَ وعظَمَةَ هذا الحوار القصير بين عائشة وزينب؟

أرأيتم أهمية الورع والتقوى في الرُّقيِّ بالنفوس؟ بدأ الحوار بالمنافسة، ولكنها منافسة راقية شريفة؛ لأن كلَّ واحدةٍ منهما كانت تفاخر الأخرى بعلاقتها بربِّها ومكانتها عنده، ولم تفاخر بمالٍ ولا لباسٍ ولا جاهٍ ولا مظهرٍ من مظاهر الدنيا.

ولهذا سَرَعان ما انصرفت المفاخرة إلى سؤال لطيف ظريف وجّهته زينب إلى عائشة، تسألها عما قالت حينما ركبت جمل صفوان بن المعطِّل.

«حسبي الله ونعم الوكيل».

«إنها كلمة المؤمنين»

أقول:

هذه المنافسة الشريفة بين صاحبة الحرير الأخضر وزينب بنت جحش هي التي جعلت حَمنَة تحارب لأختها في قصّة الإفك.

عذراً - أيها الأحبة - فسوف أترك لكم فرصة الإيغال في أعماق هذا الحديث العجيب فهو مليء بالجواهر واللآلئ التي لا تُقدَّر بثمن.